الفصل الأول

مداخل مبدئية إلى التفكير العلمى

المدخل الأول: دعوة الأديان إلى التفكير العلمى

المدخل الثانى: آليات التفكير العلمى

المدخل الثالث: الطبيعة النوعية للتفكير العلمى

المدخل الرابع: الانعكاسات والتحولات

المدخل الخامس: منطلقات التفكير العلمى وقواعده

المدخل السادس: امتداد حركة التفكير العلمى

المدخل السابع: ثقافة التفكير العلمى بين الغياب والحضور

المدخل الثامن: بين التفكير العلمى والإبداع

المدخل التاسع: الحد الاصطلاحى فى التفكير العلمى

المدخل العاشر: توظيف التفكير العلمى فى حركة البحث

obeikandl.com

obeikandl.com

المدخل الأول
دعوة الأديان إلى التفكير العلمى

اهتمت الأديان بالجانب الروحى والعقلى فى البنية التكاملية للإنسان، وجاء خاتم الأديان مركزا على وجوب التفكير العلمى منذ نزلت أولى آياته الكريمة داعية النبى الأمى إلى ضرورة القراءة والتعلم باعتبارهما – أى القراءة والتعلم – المدخل الأول للتفكير الإنسانى الرحب، بما ارتهن به من الإشارة إلى الكتاب باعتباره " قيد العلم " ومعرفة القلم باعتباره " أداة لتسجيل المعرفة ".

هكذا تكررت الصياغات القرآنية، وجاءت الضمانات الدينية لفرضية طلب العلم والبحث عن المعرفة بدءا من " ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين "، إلى "نون والقلم وما يسطرون"، إلى " وما أوتيتم من العلم إلا قليلا " وتتويجا بالتفضيل الصريح للعلم والعلماء باعتبارهم فئة متميزة " إنما يخشى الله من عباده العلماء" و" قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون".

ومع تواصل الصياغات واستمرارية الضمانات، جاءت الدعوة مكررة إلى وجوب إعمال العقل منذ حرم الإسلام الخمر، حتى لا تتعطل أقدس ملكة وهبها الله لعباده مسخرا لهم الكائنات بسببها، فكان التدرج فى التحريم باعتبارها ضربا من أزمة المرحلة تتطلب حكمة التشريع التدرج فى تحريمها بدءا من " يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما " إلى (يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) إلى التحريم النهائى فى سورة

المائدة " يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون" حيث جاء التعليل واضحا فى مخاطبة العقل والفكر والوجدان "إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون" وفى الاستجابة للشيطان أمام هذا الوضوح تغييب للعقل وإيقاف لملكة التفكير، إلى الوقوع فى دائرة الحمق والرعونة والسفه والطيش مع تعطيل للفكر والروية والتمهل فى قراءة الحقائق والصد عن ذكر الله والعبادات، مع تعطيل عن الفرائض والطاعات الواجبة من قبل المخلوق تجاه الخالق.

على هذا النهج سار الإسلام فى احترامه لمقدرات العقل البشرى، وتعزيز إصداراته وأحكامه، فكانت تزكيته للعلماء باعتبارهم ورثة الأنبياء وكان الحرص على دعوة العقل مرارا للتفكير وعدم التوقف بحثا عن أسرار الكون وآيات الله فى الآفاق وفى الأنفس، ومن ثم كان الخطاب الدينى موجها للمحسنين الذين كانوا أهلا للهدى والتقوى والرحمة، وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهم الباحثون عن المعرفة بعقولهم وأفكارهم وما استقر فى أفئدتهم من يقين الإيمان، فكانوا فى الخطاب القرآنى هم " أولو الألباب" وهم " أولو النهى" وكان منهم أهل التقوى واستحقاق المغفرة، لأنهم نفذوا ما ورد فى فواصل الكثير من الآيات القرآنية " أفلا يعقلون" " أفلا يعلمون" " أفلا يتدبرون القرآن" " أفلا ينظرون إلى ....." فالدعوة إلى التعقل والتعلم والتدبر والنظر والتأمل – فى جملتها وتفاصيلها – إنما هى دعوة صريحة إلى التفكير المنهجى الذى يتجاوز العشوائية والعبثية، وهى قمة تكريم الإنسان الذى لم يخلق عبثا " أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون" فالإنقاذ الحقيقى يبدأ من تكريم الإنسان المفكر حين يبحث عن أسرار الكون، وهو مأمور بذلك مكانا وزمانا، فعليه طلب العلم ولو فى الصين، وعليه البحث عن مصادر المعرفة من المهد إلى اللحد، وهو – أى العلم – فريضة على كل مسلم ومسلمة دون تفرقة بين النوع، ولا الأمم أو الشعوب،

فالعلم - بهذا المفهوم الإسلامى الراقي- يبدأ من الوحدة (وحدة النوع الإنساني) إلى تعزيـز صيـغ التنـوع الفكـرى بـين شعـوب الأرض الـتى سخـر الله لها الكون بكل مقوماته ومقدراته؛ لكى توظفه فى خدمة الإنسانية واستمرار الحياة فى ظل منظومة التطور.

هذه الرؤية القرآنية تظل دافعا للتأمل على غرار ما تنادى به فقهاء الإسلام وعلماؤه المجددون، الذين وظفوا باب الاجتهاد مدخلا إلى الانفتاح على العلم، حيث دعا المجتهدون منذ ثناء المجتهد الأول فى الأمة - عليه الصلاة والسلام - على معاذ بن جبل حين رآه يحكم بكتاب الله وبسنة رسوله فإن لم يجد اجتهد برأيه، فكان للمجتهد نصيب إذا أخطا، وله نصيبان إذا أصاب، مما يعنى فتح باب الاجتهاد مدخلا إلى أصالة المعرفة، وسبيله – أى الاجتهاد- التفكير العلمى وإلا اختلطت الأوراق بين العلم وبين الفوضى مما لا يجوز قبوله عقلا ولا منطقا.

دعوة الإسلام إلى التأمل فى الآفاق والأنفس البشرية، ومحاولة معرفة قصة الخليـقة بدءا مـن سلالة من طـين، إلى نطفة فى قرار مكـين، إلى علقـة، إلى مضغة، ثم تكسى لحما، ثم أنشأه الله خلقا آخر، كلها دعوة للتفكير والتأمل الذى لا يمكن أن يتـم إلا بالتفـكير العلمى فى رحلـة المخلوق على المستوى الفردى، وهو ما يمتد ـ بالضرورة ـ إلى تأمل السياق الإنسانى العام.

وقد وعى علماؤنا الأفذاذ هذه الحقائق، وحاولوا توظيف التفكير العلمى فى استجلاء حقائق الكون، فكان منهم تأليف العلوم فى شتى فروعها عبر المناهج التجريبية والنظرية مدخلا جادا وأصيلا لتطبيق منظومة المبادئ والقيم، التى انطلق منها الإسلام داعيا إلى إسعاد البشرية، من خلال إعمال قدراتها على الانطلاق والتفكير العلمى بعيدا عن الشعوذة والدجل، وبمنأى عن الاستسلام للخرافة والوهم وفوضى الأساطير والخزعبلات اندفاعا إلى عالم التجارب والنتائج والبراهين والأدلة، التى تبدأ من التفكير العلمى وتنتهى إليه عبر عطاء العقل وتأمل الظواهر واستجلاء الحقائق.

المدخل الثاني
آليات التفكير العلمي

هل يمثل التفكير العلمى استعدادا فطريا لدى الأفراد؟ أم يدخل فى باب الاكتساب وتراكم الخبرة، أو السعى خلف أبواب المعرفة بحثا عن الحقيقة؟

من المؤكد أن ثمة مداخل تساعد على الاتجاه إلى التفكير العلمى، قد تحدث مفارقات على المستويات الفردية، وهذا قياس طبيعى للأشياء فى ظل الاعتراف بالمواهب الفردية والفروق الشخصية، ولكن الثابت أن الحرص على البحث عن المعرفة يظل دافعا لتأمل بعض مداخلها، التى يمكن أن نرصد منها على سبيل المثال:

- اتساع دائرة المادة القرائية فى كل مجالات العلم، مع التركيز على ما يتماس مع مجالات التخصص الدقيق، وليدرك القارئ أنه لن يندم يوما على شىء قرأه بقدر ما قد يندم على ما لم يقرأه، ففى القراءة أسس تعرف الأنا والآخر والعالم والمجتمع، وأسس الانطلاق المعرفى إلى المقاربة المنهجية لأسرار الكون وفتح مغاليقها، والمدخل الطبيعى إلى الانفتاح على الطبائع النوعية للموروث الإنسانى وفهم المشترك منه والخاص، وإدراك طبيعة التعامل مع موروث الأمة من منظور المراجعة والمساءلة بعيدا عن الاستعباد والسيطرة، واندفاعا إلى مناطق الحوار والمناقشة من خلال إعمال المعقول مع المنقول، أو إعمال الرأى مع النص بما لا يحدث خللا، ولا يمثل شططا، فلكل مساحاته وحرماته واحترامه واعتباره ومنزلته.

- تقدير الاستباقات المنهجية، وتعميق ثقافة الوفاء والاعتراف بحق الشعوب فى الاكتشافات العلمية والمبادرات الفكرية الرائدة، على نحو ما سجله – مثلا- علماؤنا المسلمون الأوائل فيما قدموه للبشرية فى عصور ظلامها على مستوى المنهج والاستنارة من خلال النظريات والتجارب والنتائج فى سياق علوم الطب والهندسة والفلك والعقاقير والصيدلة والرياضة والكيمياء وغيرها من مجموعة العلوم الإنسانية التى أصلت لمنظومة القيم والمبادئ والمثل على المستوى الجمالى والفلسفى والمنطقى والقيمى والإنسانى بوجه عام. فمن حق الشعوب والأمم ألا تبخس حقها فى ذلك الاستباق المنهجى الذى بانت فيه الفواصل، وتجلت المفارقات بين مساحات الفكر العلمى، وبين ساحات الخرافة والخزعبلات التى ترجمها – مثالا – جند "شارلمان" حين رأوا الساعة المائية التى أهداه إياها "هارون الرشيد" فتصوروا أن فى الساعة جنا يحركها، ولم يستوعبوا قصة الساعة المائية التى صنعها المسلمون لضبط مواقيتهم التى دفعهم إليها الحرص على أداء العبادات، فكانت دافعا للاختراع بشكل علمى أساسه المنهج والتفكير الصحيح، وتسجيل فضل السبق والريادة.
- تحليل دور مدارس الفكر والإبداع فى ضمانات التواصل والإضافة والتجديد، على غرار ما كان ـ مثلا ـ من مدارس الشعر العربى التى بدأت منذ عصر ما قبل التاريخ الأدبى من لدن المرقش الأكبر، والطفيل الغنوى، وأوس بن حجر، إلى ما شهدته المدرسة من امتداد على يد بشامة بن الغدير، وزهير بن أبى سلمى، لتشهد تواصلها مع عصر المبعث عند كعب بن زهير والحطيئة، ثم تستمر خلال الفترة الأموية على لسان كبار شعرائه مثل الفرزدق وجميل وغيرهما، بما يعنى ضمان تواصل الأجيال فى ظل أصالة المنهج، بصرف النظر عما تعارف عليها القدماء من مصطلح (الصنعة) أو (عبيد الشعر)، وكلاهما قريب من الفكر فى صدوره عن العمد والتأنى والروية والتمهل، وإعادة النظر والتنقيح، على عكس شعر الارتجال البديهة الذى لم نجد له مدرسة قياسية، ولم نشهد له امتدادا محوريا محددا، – على المستوى نفسه–، فليس للعشوائية منهج، ولا هى تستطيع

أن تصنع مدرسة لها رواد وتلاميذ على طريقة مدارس الصنعة والفكر، مما نشهد له شواهد أخرى فى سياق مدرسة (البديع العباسية) التى اتهم شعراؤها بالتفكير مرتين : الأولى للصورة والثانية للبديع، ولنا أن نقف عند كلمة (يفكر) حين تنسب للشاعر، بما لها من دلالة على قيام المنهج فى ضميره ووجدانه، حيث بدأت ريادة المدرسة من ابن هرمة القرشى، إلى مسلم بن الوليد، إلى تلميذه أبى تمام، إلى المتنبى فى القرن الرابع، ثم المعرى فى القرن الخامس بما يعنى تواصلها من نهاية القرن الأول الهجرى، ودقة امتدادها إلى القرن الخامس الهجرى، وهو التواصل الذى ظهر نظيره عند شعراء الروميات، الذين أحالوا شعرهم إلى بيانات عسكرية، وتقارير حربية تحكى فصولا مـن قصة صراع العرب والروم، وتعكس مشاهد من وعى الأمة تجاه قضية البطولة والأحداث الجسام منذ صدع بها صوت مسلم بن الوليد، إلى روميات أبى تمام والبحترى وابن الرومى والمتنبى وأبى فراس الحمدانى والشريف الرضى وغيرهم.

- وفى سياق المداخل الفكرية جاءت الشروح على النصوص المدونة، وتوالت حولها التعليقات والهوامش والحواشى، وجميعها كانت تمثل مراحل مهمة لإعمال الفكر، وخطوات المنهج بشكل أو بآخر، طبقا لدرجة التقدم، والقدرة على الابتكار والتجديد، مما يجعل خلاصة التفكير العلمى رهنا بمستوى النشاط المنهجى المؤسس على إنتاج العلم وتراكم المعرفـة، ومحاولـة إظهـار تجليات الذات حول علوم المادة والحياة والإنسان، وحول الظاهرة الإبداعية على السواء. وهنا تأتى مبررات احترام النسق العلمى للرؤية، مع البحث عن الأصول والجذور والثوابت، مع التفكير حول الفروع والإضافات ومناطق التجديد والابتكار.
- وفى سياق التفكير العلمى جاءت (المرجعية) الصادقة، ومعها احترام النص بما قدمه من خطاب للبشرية حلا لمشكلاتها، وطرحا لقضاياها، ورسما لخريطة معاملاتها، إلى جانب ما سجله من وجوب التأمل والتفكر والتدبر، وفتح باب

الاجتهاد فى صورة علمية يثاب فيها المخطئ والمصيب كل بقدر ما قدم واجتهد؛ بناء على رؤية الرسول عليه السلام لكل من سلك طريقا يبتغى فيه علما فيسهل الله له به طريقا إلى الجنة.

وهكذا بدت مداخل التفكير العلمى سبيلا إلى نهضة الإنسان وتقدمه، وتجاوزا لمراحل جهله وتخلفه، وانطلاقا وراء حركة الفكر فى تشخيص المشكلات ورصد الحالة الواقعية، وتحديد معالم المشكلة، إلى ما يبنى عليها من ضرورات البحث فى الحلول الداعمة لضمان سعادة الإنسان فى علاقته بالكون، وفى علاقته بأخيه الإنسان.

obeikandl.com

المدخل الثالث
الطبيعة النوعية للتفكير العلمي

ليس جيدا أن نطيل الحوار حول أمور لا طائل من وراء البحث فيها، مما قد يدعو – أحيانا - إلى فوضى الجدل، أوعدم تحقيق المطلوب الجدلى الهادف إلى الوصول إلى الحقيقة، أو تحقيق صحيح النتائج بناء على صحة المقدمات. الأمر يتعلق بترسيخ مطلب تجاوز القعقعة اللفظية، وزحام المفردات وضجيج التراكيب، أو زحام الصور والتعبيرات، وصولا إلى الغاية من خلال توظيف أقصر الطرق الممكنة بما نتغياه من دعم صيغ التفكير العلمى والأداء المنهجى الصحيح، وتحقيق القدرة على حل المعضلة فى ظل ما يحيط بها من ملابسات.

من هنا يصبح من غير المجدى إطالة الحوار حول فرضيات واهمة قد لا نحصل من ورائها على نتائج على طريقة بعض النقاد القدماء، حين شغلهم من قضايا النقد – مثلا- أيهما أسبق إلى الظهور: اللفظ أو المعنى، وعندئذ كثرت الحوارات حول ما حسن لفظه وقبح معناه، وما حسن لفظه وحسن معناه، وما قبح لفظه وقبح معناه، وما قبح لفظه وحسن معناه، وهى قسمة غلب عليها المنطق بجفافه العقلى بما يصعب تطبيقه فى تحليل الظاهرة اللغوية وتحليل "السياق" إلا أن تظل منظومة جدلية صارمة لا نصل منها – ولا نكاد - إلى نتائج يقينية محسومة بقدر ما قد ندور به فى حلقات مفرغة .. فهل نحن نفكر أولا ثم نعبر بالكلمات؟ أم أننا نعبر لحظة التفكير؛ إذ المهم أن لدينا – أساسا- قضية التفكير بوصفه نشاطا إنسانيا، وقضية

التعبير بوصفها أداة لنقل التفكير وإخراجه إلى حيز الوجود، ونقل ما نفكر فيه إلى الآخر.

من هنا يبدو الدخول إلى التفكير أمرا مقضيا بحكم إمكانة تحديد معالمه ومقوماته من حيث درجة الكفاءة العقلية، وطبائع الفروق الفردية، ومستوى التفكير الفعال، وسبل التعبير اللغوى المباشر أو المجازى أو التصويرى، مع تنمية الكفاءة والمنهج، ودعم آليات تعزيز التفكير الفردى، وتقدير عطاء النسق الاجتماعى، والقدرة على التكيف والمواءمة والحوار، ومحاولات الاستكشاف والابتكار، وصولا إلى جوهر الإبداع وتحقيق الذات.

ولعل الخطوة التالية تتجلى معالمها فى محاولة الاقتراب من أسس التفكير ومقوماته بوصفه نمطا منهجيا علميا له شروط الصحة ومتطلبات السلامة، وله – أيضا- سبله وغاياته التى قد تبدأ من خريطة التفكير -بشكل عام - فى صورة موجهة ومنظمة إزاء أية مشكلة يواجهها الإنسان.. كيف نحدد أبعاد المشكلة؟ وكيف تحول إلى حالة تحتاج التشخيص والإبانة عن طبيعتها النوعية؟ ثم سبل صياغة الفروض، وتعدد الخيارات، مع القدرة على اختبار الفروض، ووضعها موضع المساءلة والمراجعة، وخلالها تتجلى – أيضا – مساحة القدرة على الانتقاء، بناء على حيثيات ومهارات وقدرات فردية قد يرتبط بعضها بالذكاء، والبعض الآخر بمستوى التميز المعرفى فى اتجاه محدد ربما يكون لغويا أو تجريديا، أو حسابيا أو حركيا أو إبداعيا، وهو ما تبنى على جانب منه طبائع الفروق الفردية بمنطق علماء النفس والنقاد على غرار ما صاغه – مثلا- ت.س.إليوت فى تحليله لنظرية (الخلق الفني)، التى رهنها بطبيعة القدرة الابتكارية للناقد على النفاذ إلى جماليات النص من الداخل؛ الأمر الذى يتطلب –بالتأكيد- التسلح بقدرات لغوية وبلاغية قادرة على استكشاف جماليات البنية والتركيب والصورة بكل ما حولها من ملابسات غير مجتمعية وغير فردية. وفى السياق ذاته انتهى إليوت إلى مقومات الإبداع، فيما أسماه

الموروثات Traditions، وأردفها بالمواهب الفردية Individual Talents، ففى الموروثات تتجلى وحدة التلقى، وفى الأداء تظهر تجليات المواهب الفردية والفروق الشخصية التى تنبه لها العرب قديما منذ قالوا أن الرجل هو الأسلوب، فإذا تحدث الرجل أمكن التعرف عليه، أما حالة الصمت فيظل الجميع إزاءها على درجة من التشابه، لاتتكشف من ورائها الحقائق والطبائع، إلا من خلال القول الذى يكشف مستويات الشخصية التى يمكن توصيفها بالاستدلالية، أو النقدية، أو العقلية، أو الوجدانية، أو الإبداعية، أو غيرها.

من هنا ـ أيضا ـ يتجه الحوار العملى – على الفور- إلى وجوب البحث عن أنماط التفكير العقلى، من حيث أثرها فى مدارج الرقى الإنسانى الذى أنتج العلم وصاغ المعرفة على المستوى الإنسانى – بوجه عام – وعلى المستوى العربى بوجه خاص، منذ انتهت رحلة الفكر العربى إلى ظاهرة التدوين والكتابية فى العصر العباسى، من خلال "دار الحكمة" التى أسسها الرشيد فى دار السلام "بغداد"، لتدون فيها علوم الأوائل من دينية ولغوية وبلاغية ونقدية ونحوية وأدبية، وإلى جانبها كان قلم الترجمة والنقل عن الآخر حوارا مع فكره عبر الثقافات اليونانية والهندية والفارسية، فحدث اللقاء الفكرى والتثاقف بين الأمم التى تقدم بعضها فى الإبداع الشفاهى على نحو ما تميز به شعر العرب منذ الجاهلية، وما أوتوه من مفاتيح الإبداع فى فن القول بوجه عام، إلى ما تميز به غيرهم من فنون الحرب والسياسة لدى الفرس، أو المنطق والفلسفة لدى اليونان، أو الحكمة والرياضة والفلك لدى الهنود والسريان، أو غير ذلك من معايير التفوق العلمى فى كل المجالات، التى شاركت فيها الثقافة الإسلامية بنوابغها وروادها الكبار ممن وضعوا النظريات العلمية فى سياق العلم الإنسانى أو التجريبى، فانتهوا إلى " موسوعية الفكر " و" منهجية العلم " و" إنسانية المعرفة " على نحو ما صنفه ابن سينا فى " القانون " و" الشفاء " جامعا بين الفلسفة والقانون والتاريخ والإبداع الأدبى

والنقد، وعلى ما تركه الجاحظ من دراسات فى البيان والتبيين، والحيوان، ورسائل القيان، والبخلاء، وكأنما قرأ تاريخ المرحلة العباسية كلها، وعلى نهجه كانت مشاركات الشعراء، على غرار ما أبدعه أبوتمام من توظيف مصطلحات "العلوم" فى حركة الإبداع، وبمثل ذلك كانت حركة العلماء على نهج صنيع ابن حيان فى الكيمياء، وابن الهيثم فى البصريات، وابن النفيس فى الدورة الدموية، والرازى فى الطب، والخوارزمى فى الرياضة، والكندى والفارابى فى الفلسفة، والجرجانى فى البلاغة والنقد، إلى ما كان من ترجمة نظريات هؤلاء العلماء وما حدث من نقلها إلى الغرب الأوروبى؛ مما أضاء له الطريق، لإنهاء عصر الظلام، إلى بداية عصر النهضة ومعرفة الآلة والصناعة إلى الانطلاق، والتوسع فى توظيف العلم فى خدمة الإنسان، بقدر ما يمتلكه من نظرياته ونتائجه، إلى تجاوز فكرة المجتمع العبودى والنمط الإقطاعى، إلى الانخراط فى المجتمع الصناعى والطبقة الوسطى، وإلى العلاقات الجديدة القائمة على محورية الأنا وتجليات الذات وحرية الأفراد وانتصار القانون الفردى على الصوت الجمعى، إلى مجمل ما أفرزه ذلك كله من النظرية التعبيرية فى النقد الأدبى، على سبيل المثال.

هكذا تبدو طبيعة الرحلة فى عالم المعرفة والإبداع بما تتطلبه من إعمال الفكر، أو تركيز الانتباه، أو المشاركة النشطة فى حركة العلوم؛ الأمر الذى يبنى على أسس منهجية لابد من تعرفها وتحديدها، وصولا إلى تحقيق ما نزعمه من وجوب تحديد استراتيجية للتفكير العلمى، تحدد مساره ومنطلقاته، وترسم خطاه وأهدافه وآلياته وبرامجه.

المدخل الرابع
الانعكاسات والتحولات

تتبدى انعكاسات التفكير العلمى فى كثير من الصور والمشاهد الكاشفة عن طبيعة المفارقة بينه وبين التفكير العشوائى من حيث مستوى التمكن ودقة الأداء، ودرجة الوضوح والفهم، وحقيقة الكفاءة فى الفهم أو الإفهام، والاقتناع أو الإقناع؛ مما يتجلى فى عدة اعتبارات، من بينها:

١- سرعة فهم أبعاد المشكلة، مع تبين أبعادها، وظهور القدرة على البحث عن العلل والأسباب فى ظل الانفتاح على الآراء والأفكار والمواقف، مع إعمال المهارات الخاصة فى مناطق الجدل والحوار، وإدراك الحدود الفاصلة بين الظن، ودرجات اليقين، وقدرة كشف المغالطات والتجاوزات بما قد يحيطها من ضبابية أو غموض أو شبهات.

٢- مهارات إدارة الوقت، والتركيز فى الاتجاه المطلوب من واقع القدرة على التفرقة بين الصحيح والخطأ؛ مما يتطلب دقة الملاحظة، وإجادة التساؤل، ومهارات التحليل والمراجعة، والاستنتاج، وتنظيم المعلومات وتوظيفها، مع القدرة على انتقاء الأدلة والبراهين والحجج فى مواضع إصابة الهدف وتجليات الحقائق بعيدا عن التزيد والتخبط بما قد يدعو إلى الملل.

٣- تقدير حجم المشكلة موزعة بين الصعوبة والسهولة، ودرجة الاقتراب منها بين الجرأة والتردد، ومستوى الثقة فى الذات، وجسارة الإقدام والاقتدار على

العرض وصحة التصنيف والمقارنة والتحليل، مع كشف التناقضات، وفهم طبائع العلاقات الكلية والجزئية، وتجنب الأحكام العشوائية والمطلقة والعامة والمتسرعة والمرتجلة، ومثلها المبنية على الانفعال العارض.

٤- الوعى بحقيقة العلميات المعرفية، ومحاولة إعمال الذاكرة والاستدعاء الدقيق، وتوجيه الكفاءة العقلية من خلال البحث فى المصادر الموثقة عن المعلومات والبيانات، وربط الاستدعاء بالملابسات، دون الوقوع فى تناقضات أو سلبيات فى طرح معايير الحكم بين المبالغة أو التهويل، أو التهوين والاستخفاف.

٥- تجاوز المنطلقات الذاتية فى إصدار الأحكام النهائية، لاسيما إذا تعارضت مع الحقائق، أو هيمن عليها تضخم الذات، أو كان الدافع إليها الرغبة فى توهج الأنا على حساب القواعد والثوابت، أو على حساب تهميش الآخر أو تسطيح مواقفه أو التقليل من أهمية أطروحاته أو منطق الرفض للرفض.

٦- احترام النماذج الابتكارية والمبادرات الفردية، وحدود العمليات العقلية والخبرات والأنشطة، مع تقرير قيمة الحساسية الخاصة للأفراد، دون جعلها حدا فاصلا فى التقييم أو إصدار الأحكام أو النتائج.

ثم عدم الجمود أمام مجمل التعريفات، ومحاولة وضع أسس ومعايير للأخذ بها وتبريرها، أو الإضافة إليها أو التفكير فيها بما لا يتأتى إلا من الوعى بالحد الاصطلاحى للمفاهيم والأشياء والعلل، وهو المدخل إلى مزيد من الفضول وحب الاستطلاع، محكوما بما يتطلبه العقل من ضوابط وما تتطلبه المواقف من التروى والهدوء.

المدخل الخامس
منطلقات التفكير العلمى وقواعده

من السهولة بمكان تحديد الفواصل والفروق بين علمية التفكير، وبين العشوائية والارتجال والفوضى؛ حيث تبدو العلمية منوطة بعدة منطلقات وقواعد تبدأ من تقنين حدود المصطلح وأبعاد المفردات، وتنتهى عند حد التوازن النفسى والانفعالى والعقلى للمفكر، بما يجب أن يتمتع به من الحياد والموضوعية بما يدعو إلى البحث الجاد عن الأدلة والحجج والبراهين، وينأى عن منطق الاستسلام للوهم والخرافة والدجل والشعوذة واللامعقول.

والمعقول أن تتحدد القواعد والأصول بناء على حيثيات المصطلح، والتزام حدوده بما يمكن إيجازه فى عدة نقاط :

أولا : وضوح الرؤية والأهداف والوسائل والغايات، ففى غيبة هذا الوضوح يختل التفكير وتضطرب المفاهيم، وفى حالة الغموض والضبابية يظهر التشويش وربما تختلط الأوراق وتضيع الحقائق فى زحام الخلط، ويبدأ الوضوح من وجود رؤية وموقف يضع المفكر على بداية الطريق الصحيح، ويسهل له مهمة تحديد أهدافه وغاياته، وبالتالى تتحدد له الوسائل والآليات بقدر ما يمتلكه من ملكات وقدرات ومهارات، وبقدر ما يتهيأ له من استعداد.

ثانيا : تحديد الموقف من المسلمات والبدهيات، وهذا قياس طبيعى للأشياء، فثمة مسلمات مفروغ منها ينبغى تعرفها من باب القناعة بوجودها؛ خاصة أن أى تفكير ينطلق من محاولة الوصول إلى الحقيقة، بما يتطلب كثيرا من الجلد

والتحمل، والقدرة على المتابعة فى منظومة الاستقراء والاستقصاء بما يضمن للمفكر الحد المناسب من الاقتناع والهدوء والاطمئنان.

ثالثا : التمكن من الأدوات، وعلى رأسها لغة التعبير التى تظل الأساس المعبر عن الفكرة بصرف النظر عن الجدلية النظرية حول أسبقية الأداة أو الفكرة؛ إذ المهم أن يمتلك المفكر من القدرات التعبيرية ما يفى باحتياجاته العلمية بعيدا عن الغوغائية والضجيج بما يشوه الحقائق، أو يضلل الحجج، أو يغيب الأفكار والمواقف، أو يقضى بتأويل دلالات الظواهر فى غير اتجاهها الصحيح.

رابعا : حرية الفكر واحترام رؤية الآخر، والقدرة على الجدل والإقناع بقدر الفهم والتدرج المنطقى بين المقدمات إلى النتائج، مما يتطلب – بدوره – التمتع بكثير من الهدوء والتأنى بعيدا عن الرعونة والاندفاع مما قد يخل بالحيدة والموضوعية، أويغلب الانفعالية والتأثرية التى لا تغنى عن الحق شيئا.

خامسا : توافر الحس الجماعى واحترام الفريق، مع انطلاقة الذاتية التى تتفاعل مع الآخر قبولا أو رفضا، حوارا ومناقشة ومداخلة أو إقناعا أو اقتناعا إلى ما يتطلبه الموقف من علمية ومنهجية من حيث الالتزام والخطوات وصولا إلى النتائج أو الأحكام أو التقييم .

وانتهاء من تسجيل هذه المنطلقات بوصفها قواعد أساسية، تظل للحوارات الفكرية أصولها ومقوماتها التى تحتاج كثيرا من الدربة والخبرة، وهو ما يجب التوجه به إلى النشء منذ مراحل مبكرة، يجب أن يتشكل فيها على احترام الملكة والموقف، وتقدير مقولات الآخر ومفاهيمه، ومحاولة الفهم دون وجل أو حرج، والانطلاق من الشفافية ووضوح الأفكار، ورفض الغوامض واللبس على علاته، والإكثار من التساؤل حيث يجب التساؤل ويحسن الاستفسار بعيدا عن الفجاجة وقبح المواجهة.. وعندئذ نبدأ دخول منطقة المهارات القيادية، التى لها مواضع أخرى، تختلف عن هذا السياق العلمى المحدد بما يتطلبه من الالتزام بمساحته المتوقعة.

المدخل السادس
امتداد حركة التفكير العلمي

هل يقتصر التفكير العلمى على زمن ما أو مرحلة بعينها؟ أم يعرف امتداده على مدار الحركة بين الماضى والحاضر والمستقبل؟ لعل الإجابة المبدئية عن التساؤل تستدعى الاطمئنان ـ أولا ـ إلى صحة الجواب عن سؤال آخر: فهل يقتصر التفكير العلمى على تحوله إلى برنامج دراسى نظري؟ أم يجب أن يدرس عبر المناهج، ويدخل جزءا من نسيج برامج العمل العلمى على مختلف مجالاتها؟

لعل الأمر فى الدراسات التجريبية يبدو سهلا ميسورا، ففى مساق درس الرياضة أو الأحياء أو الفيزياء وغيرها لابد أن يمتلك المتلقى الحد الأدنى من الوعى، بما يطرح عليه من معطيات، أو خلال ما يجريه من تجارب، أو ما قد يصل إليه من نتائج. أما فى حقل الدراسات الإنسانية.. فيبدو الأمر مرهونا بالقدرة على توظيف المنهج فى ضبط حركة الفكر بعيدا عن العشوائيات والفوضى، وبعيدا– أيضا – عن خلط الحقائق بالأوهام إلا فيما يميل إلى العلمية بذاته، على نحو ما يدرسه طلاب القانون والاقتصاد وعلوم السياسة والتاريخ والجغرافيا والتجارة، فلكل علم قواعده وقوانينه التى يتفق عليها بين المتخصصين، وتظل مناطق الخلاف مرهونة بالفروق الفردية فى مستويات التطبيق، أو محاولات التغيير والتجديد.

أما فى مجال الدراسات اللغوية والنقدية والأدبية فتظل الساحة قابلة لنشر هذا النمط من التفكير، ومحاولة نشره على طلاب المعرفة فى كل ما يتلقونه من جانب، ثم فى كل ما يطرحونه من حوارات، وما تكشفه سبل التقويم من جانب آخر.

ذلك أن الطالب يقف حائرا بين الأساليب الأدبية والعلمية حيرته بين مناهج المعرفة، وعليه أن يتلقى من كل القراءات، وله أن يحيلها إلى مفاهيم يتدبر فيها طبيعة المصطلح وحدوده، وينطلق إلى ما وراءه من دلالات وأبعاد.

من البدهى كلما تقدم العلم أن يتقدم الإنسان اطرادا، وأن يميل إلى المنهجية التى يجب أن تنأى به عن تقبل الخرافة والوهم، على غرار ما كان من عصور ما قبل العلم، والتى صاغ فيها الإنسان معظم معارفه انطلاقا من التجربة والخطأ، أو من واقع الممارسات الشرطية بتكرار الفعل وردود الفعل، دون بحث معمق فى العلل والأسباب، ودون انشغال واضح بالتدرج المنطقى، أوالتحليل العقلى لما وراء الطبيعة من مجرد أو معنى أو قيمة، على غرار ما صنفه الفلاسفة – مثلا – فى مسألة الحدس والقيم المطلقة بين الحق والخير والجمال، والمعانى المجردة حول الروح والنفس والزمن، وغيرها من مفردات قد يعد الإقدام عليها ضربا من المغامرة، إذا لم يتسلح المفكر بضمانات الفهم والوعى والتأمل والقدرة على الجدل، مستندا إلى الدليل العقلى والمرجعية الذهنية الصحيحة. ولعل هذا ما تجلت منه جوانب فى فكرنا العربى حين رأى القدماء – مثلا – أحد شعرائنا فصنفوه من الحكماء على نحو ما أطلقوه على أبى تمام والمتنبى حين جعلوهما حكيمين والشاعر البحترى، حيث جنح الشاعران إلى علمية الفكر فى تجليات الحكمة، التى قربتهما إلى الحس الفلسفى وعقلنة الأشياء، أليست الفلسفة حب الحكمة على نحو ما؟ وحين استطاع الشاعران تطويع الفلسفة وغيرها من المعارف والعلوم للشعر فقد صنعا شيئا جديدا خارجا عن المألوف بما قد يدعو إلى إعادة النظر فى صقل العملية الإبداعية، حين تصدر عن الشاعر باعتباره مفكرا وصاحب منهج ورؤية، يصدر عن نظرية ومفهوم للطبيعة النوعية لفن الشعر وأدوات التشكيل الجمالى والوظائف بين نفسية وجمالية واجتماعية وأخلاقية وغيرها؛ بما يعنى أن المبدع ناقد وصاحب موقف، إلى جانب تجربته التى يتميز بها عن غيره من حيث الخصوصية والتفرد، إلى جانب المشترك الإنسانى العام الذى لاينفصل عن مساقاته.

وعلى هذا حدثت المفارقات فى القرن الخامس – مثلا – حين طوع أبو العلاء المعرى حركة الشعر فى خدمة الفلسفة، حتى حار القدماء فى أمر تصنيفه بين شاعر الفلاسفة أو فيلسوف الشعراء، ولكنه – فى كل الأحوال – وضع ميزانا جديدا لحركة التفكير العلمى فى دائرة الإبداع، على غرار ما سبقه من رؤية شعراء الاعتزال ممن أحسنوا الجدل، وشغلتهم الحجج والبراهين دعما للمخالفة على طريقة ابن الرومى – مثلا– فى القرن الثالث حين استحسن الموت وفضله على مقولات الحياة لدى سواه:

قد قلت إذ مدحوا الحياة فأكثروا للموت ألف فضيلة لا تعرف

فيه أمان لقائه بلقائه وفراق كل معاشر لا ينصف

وهو ما قارب البحث عن التفرد العلائى، الذى جنح إلى استساغة العمق الفلسفى فى طرح التجارب التى تجعل من الصعوبة تصنيف منزلة أبى العلاء بين الزهاد والفلاسفة والأدباء إلى جوار منزلته أديبا ولغويا وناقدا ومصنفا، على غرار ما جمعه من " معجز أحمد " وما صنفه من إبداعه عبر "الدرعيات"، و"سقط الزند" واللزوميات، وماورد من إبداعه النثرى فى "رسالة الغفران" و "رسالة الهناء" و"رسالة الملائكة".

هكذا جاءت حركة التفكير العلمى قاسما مشتركا بين العلماء والمبدعين؛ مما يجعل الاختراع والابتكار فى العلم أقرب إلى الإبداع فى الأدب، ففى مجملها يقوم الأمر على البحث عن التميز والتفوق والنبوغ، قبل عموم ما هو متاح لغير المبتكرين والمبدعين وأصحاب المواهب الخاصة فحسب.

المدخل السابع
ثقافة التفكير العلمى بين الغياب والحضور

من المؤكد أننا نستشعر خطر البحث العلمى وأهميته فى توجهات الحياة، وتحقيق ضمانات سلامة التوجه فى مسارات الفكر، ومن واجبنا الاعتراف بحالة التردى التى تعانى منها معظم البحوث، على الرغم من توافر وسائط المعرفة ووسائلها بشكل مختلف تماما عما أتيح للجيل السابق؛ فثمة وفرة فى مصادر المعلومات عبر شبكات المعلومات، ومثلها فى المكتبات الإلكترونية وآليات نقل المعرفة بشكل عصرى متطور ومتواصل ومتجدد.

ولكن الأزمة ترتهن بثقافة جيل الباحثين أنفسهم حول سهولة استدعاء آليات المنهج، وإعمال قواعده، والالتزام بثوابته وأصوله، أو القناعة بالتجاوزات والسرعة، أو إدخال باب المجاملات فى الحسبان.

من هنا يحسن أن نرصد المشهد الثقافى بكل تناقضاته وغرائبه ونقائصه فى محاولة لاستبعاد عدة ثقافات من ساحة البحث العلمى، ومنها مثالا – وليس حصرا – :

● ثقافة الارتجال والعشوائية، ومالها من تداعيات سلبية مدمرة لخطط البحث ونتائجه على الساحة العلمية والمجتمعية والتطبيقية، ثم ثقافة المجاملات والتهاون، وما يصحبها من اللين والتبسيط، وسرعة القراءة، وادعاء التخفيف، أو مايوازى الادعاء من عدم الدقة فى الفحص والمناقشة، أو إيثار تبادل المجاملة بين رسالة هناك وأخرى هنا، أو الزعم بوجوب التبسيط مع تعددية الجامعات الإقليمية، وما قد

يميل إليه الباحثون فى بعضها من التسرع فى إنجاز البحث على الرغم من حالة النقص المعرفى التى ربما تغطيها المكتبات الكبرى والمؤسسات الثقافية، والمكتبات الجامعية فى الجامعات العريقة.

كما يأتى ضمن الاتجاه السالب ثقافة السرعة ومواكبة الإيقاع لطبيعة الحياة، وخضوعا لعامل الزمن، الذى ربما يحاول الباحث اجتيازه على حساب الجدة والإتقان والتروى، وهنا يكمن الخطر الذى يترصد البحث العلمى ويتهدده إذا لم يقف الباحث متأنيا فى تطبيقات المنهج بشكل مناسب لطبيعة الموضوع بعد استقراء ما حوله، واستقصاء عناصره ومقوماته.

وأمام هذه الاتجاهات الحاضرة، والتى يحسن تغييبها يتعين أن يتنبه الدارس إلى وجوب إحياء الثقافات البحثية البديلة، سواء ما ورد منها لدى جيل الباحثين الرواد، أو ما قد تفرضه المرحلة من مستجدات ومتغير، ومنها أيضا:

* ثقافة احترام المنهج العلمى فى استدعاء تاريخه وتجدده وتطوره من جانب، والالتزام بالتكوين العلمى والاستعداد الفردى، من خلال تناول المادة القرائية الواسعة من جانب آخر.
* ثم ثقافة الجدية والدقة دون تهاون فى حق العلم أو الباحث؛ الأمر الذى ينقذ حقل الدراسة من حالات التردى أو الضعف، كما يضمن حقوق الملكية الفكرية بالشكل القانونى والأخلاقى المتوقع.
* ثم ثقافة التروى والتأنى فى قراءة الأشياء، والفصل فى حدود المصطلح، واستقراء تطوره، وما حوله من دلالات تبعث على إعادة التفكير فيما يطرح على ساحة البحث، لاسيما مع الإلمام بعدد من المناهج العصرية، التى يقف منها الباحث موقف الاختيار الصعب، بما له من تداعيات تتجلى لصالحه أو على عكس ذلك.

من مجمل هذه الثقافات الدافعة إلى تأمل الحالة البحثية تحليلا وتشخيصا، يبدأ الانطلاق فى تصحيح المسار من خلال تغييب ما فسد منها، وإحياء ما صلح، فلعل ما يتمخض عنه التغييب والحضور ما يدعو إلى تقدم البحث ورقيه طبقا لمتطلب الفترة وإيقاعات المرحلة.

obeikandl.com

المدخل الثامن
بين التفكير العلمى والإبداع

هل توجد مساحة فارقة بين التخصص فى حقل معرفى بعينه، والإلمام بغيره من مجالات الفكر؟ وهل توجد المساحة ذاتها بين الإبداع والفكر؟

الإجابة عن التساؤل الأول يطرحها لقب المثقف بمنطقنا العصرى، والتعريف الشامل لمفهوم الثقافة حول ما يفكر فيه الإنسان، وما يبدعه، وما يحلم به؛ حيث تظهر شمولية التعريف من احترام الامتداد الزمانى بين الـمضى والمضارعة فكرا وإبداعا، فهو يفكر فى الماضى من قبيل الاستدعاء والمراجعة والإفادة من تراكم الخبرات والمعارف وتصحيح الأخطاء واستمرار الجيد، وبناء أنظمة التقدم على أصول معرفية ضامنة للتواصل.

أما ما يحلم به الإنسان فيظل محسوبا فى دائرة فكره من باب التخيل أو التوقع، أو الترقب أو الطموح، أو الأمل فيما يمكن أن يصنعه مستقبلا بما يمكن أن يدفعه إلى تجاوز اللحظة الفارقة بين منطق القوة والفعل، إذا استعرنا المصطلحين من المنطق الأرسطى، فالإنسان بالفعل يعيش حالة لها ملابساتها الواقعية، وبمنطق القوة قد يعيش حالة مفارقة ربما تتحقق أو لا تتحقق، ولكن المسافة بينهما – أى القوة والفعل- يجب ألا تتسع، وإلا أسرف على نفسه فى أحلام اليقظة بما قد ينذر بالجنوح إلى مثل جنون العظمة، الذى أصاب أبا الطيب المتنبى ـ مثلا ـ حين عاش "نفسيا" فى عالم الملـوك والأمراء والقادة، فبانت لديه المفارقة مع ما عاشه "واقعيا" فى

جلباب شاعر، يطلب المجد بالسيف قبل القلم، وبالرمح قبل القرطاس على حد تصويره.

وتبقى الإجابة عن التساؤل ثانيا رهنا بطبيعة الإبداع جزءا من منظومة الثقافة، فالثقافة والمعرفة (حالة) تعكس قدرة الإنسان على التعامل مع الواقع، والحوار مع الآخر بدءا من الاعتراف به، إلى القدرة على التحاور معه، إلى تجليات الذات من خلال الفهم والوعى ومستوى الإدراك، وما ينتج عنه من تداعيات تدفع دفعا إلى التفوق والنبوغ.

وحالة الثقافة بمفهومنا العصر توازى – أو تكاد- ما شغل به الجاحظ ـ مثلا ـ من إلحاحه على وجوب إلمام العالم من كل علم بطرف، وهذا هو المحك فى حوارنا حول التكامل المعرفى المعمق بتعددية المصادر وصدق المرجعية، ومحاولات القارئ أن يصل إلى مصادر المعارف بذاته، وهو ما قد يتجلى فى مسألة التعلم الذاتى والتعليم المستمر، وما يشبهها من مصطلحات عصرية حول أنماط التعليم.

وليس غريبا أن نتحدث – مرحليا – عن طبائع المساقات التخصصية والبينية تلك التى صدر عنها القدماء، منذ كان المؤلف هو المصنف والجامع والشارح والمدون والمترجم، وهو نفسه الناقد والمؤرخ والفيلسوف والمفكر؛ مما جعل ثقافتنا العربية تجمع بين المشهدين برحابة وعمق : مشهد التخصص ومشهد الموسوعية.

وبناء على هذا الطرح يظل مطلوبا ذلك الإلمام بما حول مصطلحات العلوم من مفاهيم، وما فى جعبتها من مهارات التفكير التى تنمى القدرات، وتتسق مع الاستعداد البشرى، وتدفع إلى التنافسية ووجوب الإجادة.

والعودة إلى الماضى هنا واجبة ومهمة إذا نجحت – أى العودة- فى إحياء النموذج المثال الذى سار عليه السلف، فتحول القاضى الجرجانى – مثلا – من قاض ورجل قانون إلى ناقد يصنع الوساطة بين المتنبى وخصومه، وتحول الثعالبى مثلا من صانع فراء إلى مؤلف ليتيمة الدهر، التى أبدع فيها فى الدرس الإقليمى

للآداب وتحليل خصائص البيئات، ودراسة أثر المرحلة على الظاهرة اللغوية والإبداعية، وقبل ذلك كان تحول أبو تمام من صنعة أبيه الحائك إلى مبدع من طراز خاص، ينسج خيوط شعره بين أطروحات العقل وإملاءات الوجدان، ويتفاعل لديه الفكر والشعور ويجمع فى نسيج واحد بين الأقيسة المنطقية والفنية بشكل منقطع النظير، وقبله كان تحول أستاذه مسلم بن الوليد من صنعة أبيه أيضا إلى رائد من رواد البديع العباسى، إلى غير ذلك من صور التفاعل والتثاقف التى تحكيها حماسات أبى تمام والبحترى ووحشيات أبى تمام ونقائضه، إلى مؤلفات ابن المعتز بجانب إبداعه الشعرى الضخم، فكانت كلها مساحات من محاولات الشعراء الأعلام فى مزاحمة المؤرخين والنقاد، فتركوا بصمة جيدة فى عالم الصقل الإبداعى والدقة المعرفية حولوا من خلالها البديع -مثلا - إلى أداة تصويرية، تتجاوز حد النقش والزخرف والزينة لتتوغل فى بنية العلاقات اللغوية، وصناعة نسيج جديد له أصوله ومقوماته التى ينطلق منها الفكر مصاحبا لتجارب الوجدان ومواقف الإبداع.

ويبقى الحد الاصطلاحى واردا فى التعبير العلمى الدقيق عن طبائع الأشياء وخصائصها فى مجال العلوم التجريبية حين تقف عند التطبيقات، تحت مسمى الاختراع والابتكار، بما يضمن للمخترع حق الملكية الفكرية، وعند مساحات الإبداع تظل الأمور واردة حول طبيعة الملكة والإلهام، وخصوصية التجربة والخيال، كما تظل واردة حول المشترك اللغوى والتصويرى، وتداول المعانى والتناص والتضمين، وغيرها من معايير التميز الإبداعى.

ومع هذا يصح الانطلاق بمفهوم الإبداع عبر القاسم المشترك بكل ما يحتمله من دلالات التفوق والنبوغ فى أى من حقول المعرفة التى لا تعرف حدود الزمن؛ حيث يتلاقى فيها الماضى مع حقائق الواقع مع رؤى المستقبل، دون انفصام أو انقطاع، وهذا هو المحك فى أن نزعم بتحول الشاعر إلى مؤرخ حينا، أو إلى مفكر فى بعض الأحيان، أو يتحول الفيلسوف إلى مبدع، أوالمؤرخ إلى أديب فى صياغة لغته على نسق فنى جميل.

المدخل التاسع
الحد الاصطلاحى فى التفكير العلمي

فى التفكير العلمى يجب أمن اللبس، والخلاص من تداعيات الخلط بين المصطلحات، وهو اللبس ذاته الذى يمكن أن يقع بين بعض المفردات؛ الأمر الذى يستوجب تحرى الدقة التى تتأتى من الممارسة العلمية الصارمة، وتجدد القراءة المتأنية، وتعددية المصادر الأصيلة، وسلامة المرجعية.

وتظل معرفة الحد الاصطلاحى علامة جيدة على طريق الوعى المنهجى، وضمان صحة اتجاه التفكير، على نحو ما يستعمل مثلا من كلمة (لغة) للدلالة على "اللسان" والخلط الحادث بينها وبين كلمة (لهجة) على الرغم من تباعد الدلالة الاصطلاحية؛ ذلك أن كلمة (لغة) – مثلا – لم ترد فى القرآن الكريم على الإطلاق إلا فى كلمة (لسان) التى تكررت فى بعض الآيات الكريمة (بلسان عربى مبين) وتأكيد عروبته (إنا أنزلناه قرآنا عربيا)، وما يقاربها من ترديد المصطلح الدال على مفهوم (اللغة) مما يعنى عموم كلمة (اللسان) بقدر ما يصدر عنها من لغات الشعوب، على أن يظل مصطلح (اللغة) دالا بذاته على الفصحى الجامعة للأمة الواحدة، بما يفصل بين حده وفضاءات (اللهجات العامية) التى ظهرت – تاريخا – بين القبائل العربية منذ ظهر الاختلاف بين لهجة أهل اليمن والجنوب القحطانية عن لغة أهل الشمال من العدنانيين، إلى أن توحدت لهجات القبائل فى لغة قريش التى نزل بها القرآن الكريم بعد أن نضج بها الشعر الجاهلى، ثم ظهرت " التعددية " فى " القراءات القرآنية" ونزول القرآن الكريم بالأحرف السبعة، وبالتعدداية

الصوتية التى مالت إليها بعض القبائل على طريقة (هراق الماء) (وأراق الماء) باعتبار الحرفين حلقيين، وعلى طريقة " ليس من امبر أمصيام فى أم سفر" فى إبدال الميم واللام (ليس من البر الصيام فى السفر) وعلى الإمالة عند بعض القوم، إلى غير ذلك من صور لغوية لا تخرج إلى أطر العاميات التى لا نعرف لها حدودا ولا عددا – الآن – فلكل قرية لهجتها العامية، ولكل قبيلة ومدينة كذلك لهجتها التى قد يجمع بينها الجذر اللغوى الأصيل والموحد، إذا ما قصدنا إلى ردها إلى أصل الاشتقاق، وربما بدت أيسرها وأكثرها ذيوعا اللهجة القاهرية التى يتعاورها المثقفون، والتى يبدو منها أكثر من ٨٥٪ من جذور عربية فصيحة.

أما الإغراب فى الانتصار للهجات العامية إلى حد المغايرة أو التناقض أو تخصيص المصطلحات بفئة ما دون أصول صحيحة فهذه يمكن رصدها – بل يجب رصدها- من خلال أطلس لغوى ينهض بإيجاز العبء المهم والخطير، والذى يجب أن يتجه إلى صناعته علماء اللغة، وبصحبتهم المشتغلون بالأدب الشعبى.. فمن الأولى أن ينهض مشروع قومى لدراسة اللهجات العامية، مع تحليل الفروق الدقيقة بينها، ودراسة دلالاتها، ورصد مساحات التقارب، أو التباعد بينها وبين الفصحى، إلى جانب استكشاف ما وراءها من مؤشرات وأبعاد مجتمعية أو قيمية، ترتهن بمنطق الجمود أو منظومة التطور.

كما يبدو مطلوبا من علماء اللغة وباحثيها أن يراجعوا برامجهم العلمية فى هذا المساق، الذى يتجه إلى تتبع سلم التطور اللغوى بما له من دلالات قيمية وحضارية؛ وبما وراءه من دوافع وأسرار ومقومات، وبما ينتهى إليه من نتائج وأطروحات، بدلا مما انتهى إليه بعضهم من منح درجات علمية لمجرد حصر الأسماء أو الأفعال أو الحروف فى ديوان شاعر ما، دون الوصول إلى نتائج، بل دون تحقيق إنجاز علمى متكامل؛ حيث ظلت الرسائل جزرا متفرقة متباعدة أدت دورها النفعى لدارسيها، ووجدت سبلها إلى أرفف المكتبات، وفقدت قيمتها العلمية، فلا هى أضافت للعلم ما كان متوقعا منها، ولا هى تركت الموضوعات مجالا مفتوحا لدراسات جادة

تنتهى إلى نتائج جديدة، أو تصدر عن رؤية ومنهج، أو تحقق إضافة من خلال الفكر العلمى الجاد.

وتكثر نماذج معرفة الحد الاصطلاحى مدخلا إلى صحة التفكير وعلميته، على نحو ما يدرسه الباحث - مثلا - من مفهوم (النقد) و(النقض) بما بينهما من مساحة التباين؛ حيث ينتهى النقد إلى التحليل ثم التقويم بالمعنى الاصطلاحى للكلمة، بينما ينتهى النقض عند مفهوم الهدم ومنه نقض البناء ونقض الأحكام، ومحكمة النقض، وغيرها من مصطلحات تسير فى الاتجاه نفسه من شعر النقائض وغيره من صور الاستخدام. وبمثل هذا الحد الاصطلاحى يبدأ الفكر العلمى فى حدود مصطلحات علم الرجال، والسند - والمتن - والجرح والتعديل، والنص، والنقل، والرأى، والتفسير، والتأويل، والعلة والسبب والمسبب، والقيمة، والفكرة، والحكمة، والمثل، والوصية، وغيرها كثير من المفردات التى يجب إدراك حدودها بدقة؛ تفاديا للخلط والتشويش الذى قد يبعث على الإرباك العلمى، أو اللبس المنهجى بما يتضمن من تشويه المصطلح، أو غموض دلالاته، أو صعوبة الأداء من خلاله، أو عشوائية التلقى أو عبثية التوصيل، على غرار ما يقع فيه الدراسون – أيضا – بين مصطلحى عمود الشعر والشعر العمودى؛ حيث تبدو العلاقة منفكة بين الاصطلاحين؛ فعمود الشعر حددته مفاهيم القدماء بما يوازى مصطلح " الصورة الشعرية " فى النقد المعاصر، منذ سجل المرزوقى شروطه فى مقدمة ديوان " الحماسة " حين حصرها فى شرف المعنى وصحته ومنطق الإبانة والوضوح ومناسبة المستعار للمستعار له، وهو ما يختلف – بالطبع – عن منهج القصيدة أو معمارها أو البنية الشكلية لها، أما الشعر العمودى فله حد اصطلاحى مختلف يرتبط بالموزون المقفى من الشعر، فى مقابل ما ظهر من السطر الشعرى بديلا عن البيت، أو شعر التفعيلة، أو الشعر الحر أو المرسل أو حتى ما يسمى قصيدة النثر.

ويدخل فى باب التفكير العلمى دقة الفصل بين الدلالات على نحو دراسة البديع ـ مثلا ـ باعتباره فرعا إبداعيا ضمن علوم البلاغة، وبينه مذهبا ومدرسة لها مرحلتها وتاريخها، ولها دورها وملامحها وروادها وتلاميذها فى العصر العباسى. وقريبا من تلك الشواهد ما يحدث من خلط اصطلاحى فى مفهوم "التضمين" بمعنى "الاقتباس" و"التناص"، وبين التضمين من المنظور البلاغى، وبين تضمين القوافى، وبين التشبيه الضمنى؛ إلى غير ذلك كثير من المصطلحات واجبة التحديد؛ ضمانا لسلامة الاتجاه العلمى، وتفاديا للخلط الذهنى بين المفاهيم فى الإطار اللغوى والسياق الاصطلاحى.

obeikandl.com

المدخل العاشر
توظيف التفكير العلمي فى حركة البحث

ترى ما المقصود بطرح قضية التفكير العلمى فى هذه المرحلة من تاريخ الأمة؟ ألأن شبابها يحتاج نمطا من الصحوة واليقظة يتأمل فيها واقعه، ويناقش أطروحاته ومشكلاته؟ أم لأنه فى مواجهة التحديات العلمية لابد أن يتعايش مع ثورات المعرفة وتراكم النظريات وملاحقة المخرجات العلمية المتلاحقة ؟ أم لأنه يجب أن ينصرف عن الركون إلى الفكر الخرافى والأسطورى الذى لا يتسق ـ بحال ـ مع منطق العلمية ؟ أم لأنه يجب أن يوظف هذا النمط من التفكير فى خدمة البحث بوجه عام ؟

يبدو أن هذا الأخير يجب أن يحتل موقع الصدارة مع الاعتراف بتكامل الرؤية، من خلال منظومة الإجابة عن كل التساؤلات، وأحسب أن هذا كان واردا فى ضمائر الأقسام العلمية المتخصصة، وفى ذاكرة أساتذتها حين شغلهم من أمرهم الموافقة على اقتراح طرح هذا المقرر الجامعى؛ باعتباره مدخلا إلى مناهج البحث فى العلوم الإنسانية؛ ربما للاقتراب من آليات تطور المنهج فى العلوم التجريبية، وربما من قبيل امتلاك الأدوات للانخراط فى سلك التقدم الذى قطع العلماء فيه أشواطا فى التكنولوجيا وظلت الإنسانيات تسير بطيئا فى خضم عشوائيات الفكر، الذى لم يحقق لها القواعد العلمية التى يجب أن تبدأ منها لتنطلق إلى تحقيق النتائج بشكل دقيق ومتكامل.

وربما كانت مشروعات إصلاح منظومة التعليم العالى، ومنها ـ مثلا ـ مشروع تنمية قدرات هيئة التدريس، تقوم على تأصيل هذا النمط من التفكير العلمى الذى وجب غرسه فى الطلاب، ووجب نقله من جيل الأساتذة إليهم عبر أساليب وصيغ تربوية وتثقيفية مناسبة. وربما كان مشروع تطوير كليات التربية قاصدا إلى تأصيل مثل هذا النمط من الفكر، من خلال ضمان قوة خريجيها أو إكساب الخبرات والتدريب والتراكم المعرفى للمدرسين الحاليين عبر دورات وشهادات عليا، تضمن انخراطهم فى عالم المعرفة بما يتطلبه من مهارات وخبرات جديدة.

من المؤكد أن غير هذين المشروعين كان مسعاه قريبا من المساق نفسه، فما كان مطلب تطوير المناهج وتحديثها إلا من باب الاطمئنان إلى سيادة التفكير العلمى، والتأسيس المنهجى للطلاب على ما سواه، وتجاوز عشوائيات الأداء التى تكثر منها الشكوى فى الدراسات الإنسانية ـ بخاصة ـ بما تتسم به من المرونة والتعددية ومساحة الاجتهاد وإبداء الآراء؛ ذلك أن مشروع رعاية المتميزين وتشجيع التفوق ومبادرات الابتكار وحق الملكية الفكرية لم يكن سوى مدخل عصرى متجدد لضمان الحد الأمثل من الجودة فى زحام التنافسية، التى يظل فيها الرهان قائما على فئة بعينها بصرف النظر عن مستوى الشهادات الممنوحة للآلاف؛ فمساحة التفوق والنبوغ تظل واردة لتحقيق إنجاز أفضل أملا فى تضييق الفجوة بين العالم المتقدم المنتج والمصدر للمعرفة، والعالم النامى الذى يشغله من أمره مجرد استيراد المعرفة واستهلاك المنتج، وهو يدرى تماما أن المنتج، هو صاحب الحق والسطوة ومالك أسرار المنتج، وله حق التصرف بحكم ملكيته الفكرية، قبل أى اعتبار آخر.

من هنا كانت الدعوة فى كل تخصص علمى، مبنية على تصور أساس ينبغى أن يتحقق بعيدا عن سطحية الرؤية حول فكرة منهج موحد، أو كتاب موحد، فلسنا فى حاجة فعلية إلى توحيد أقسام الكليات إلا إذا توحدت شعوب الأمة وتجاوزت فكرة الإقليمية وتلاقت الأفكار وتجانست الرؤى، ولكن الأولى بالنظر أن يظل

القاسم المشترك مطروحا على الساحة حين يتعلق الأمر بتوظيف الفكر فى خدمة البحث العلمى، وهذا هو المحك الحقيقى فى اعتبار التفكير العلمى خطوة جادة ومطلوبة على طريق البحث فى أى من فروع المعرفة؛ مما يجعلها وظيفة تأهيلية لما بعدها، وخطوة منهجية تأخذ بها بعض الأقسام تحت مسمى " مناهج البحث " أو غيرها من قاعة البحث، أو التدريبات المنهجية، وفى مجملها تمثل اتجاهات متماثلة فى توظيف التفكير العلمى فى خدمة المتلقى؛ باعتباره المستفيد الأول من المنهج، وكذا فى خدمة المجتمع العلمى المتخصص، ثم فى خدمة المجتمع بوجه عام؛ ولنا أن نتوقع مجتمعا طلابيا يفكر بشكل علمى فى دراسة الظواهر والقضايا وطرح المشكلات وجدل الأفكار، وقراءة الواقع ودراسة التاريخ، ورسم رؤى المستقبل، فهو مجتمع ـ إذا ـ قادر على التخطيط لكل ما يصنعه؛ مما يزيل عشوائيات الحياة المجتمعية فى كل شواهدها وبكل دلالاتها.

قد يحل التفكير العلمى لنا كثيرا من مشكلاتنا اليومية؛ إذا أفسحنا المجال للعلمية والمنهج، بدءا من احترام القانون فى التعامل مع الآخر، إلى تفعيل آداب الحوار ومستويات اللغة الجدلية، إلى تعزيز حدود المنطوق الجدلى والمطلوب الجدلى بما وراءه من نتائج علمية محققة أو متوقعة، إلى تقنين الحدود فى طبائع العلاقات المجتمعية والتعامل مع منظومة القيم والمجردات والمعانى، إلى استجلاء ما وراء المجدد من السلوك والنمط الأخلاقى، إلى الاندفاع لرؤية كل مشكلة يومية من منظور نقدى، يقف عند تحليل أبعاد الظاهرة وتشخيصها بوصفها مشكلة علمية تحتاج الفرضيات والبحث عن البراهين والحجج والأدلة والشواهد.

ومن قبيل وجوب التوظيف العلمى لأى منهج دراسى، يبدو من حقنا وواجبنا أن نتأمل مساقات هذا الدرس وتوابعه وتداعياته فى ظل احترام وحدة المنهج، مع احترام التعددية القائمة حوله، والتى تدعو كل قسم علمى ـ على حدة ـ إلى التدقيق فى توجيهه إلى حيث يخدم البحث العلمى، قبل سواه من المرئيات والأطروحات.

ومن قبيل وجوب التوظيف ذاته، يظل من حق الأقسام العلمية أن تلقى بأطيافها التخصصية الدقيقة على ما هو عام، بما لا يسقط حقها فى الإفادة وتحقيق الرؤية؛ ففى حالة سقوط الأهداف النوعية تبدو الخسائر كبيرة؛ لاسيما إذا اختلطت الأوراق بين العلمى وغيره، بما قد ينذر بنتائج غير محمودة وعواقب غير طيبة.

فى فترة قصيرة من عمر الزمان، تحولت النصوص المتخصصة إلى أقسامها العلمية من باب خدمة التخصص الدقيق، فى ظل منظومة العطاء القومى عبر محتوى لغوى فصيح أساسه الاقتراب من الفصحى، وسلامة النطق والكتابة بها. وفى فترة طويلة من عمر الزمان تتجاوز ثلث قرن، كانت الدراسة العامة جامعة بين تعددية أصوات الأساتذة الكبار، حين يقتسم الخمسة منهم منهجا واحدا يقدم فيه خلاصة النظرية والرؤية لكل منهم، فيعلمون الطلاب منهج الاختلاف وأصول الحوار، وجميعها تنطلق من التفكير العلمى فى شكله المأمول ومحتواه الهادف إلى تجليات الذات وصناعة التعددية.

الأمر مرهون بالتجربة حين تحتاج التقويم من حين إلى آخر بقدر ما تحققه من إنجاز يحتاج المساءلة من باب الاستمرار والتواصل، أو التوقف والتراجع، أو التأمل وتصحيح المسار إذا وجدت النتوءات التى تستوجب نقد الذات من باب المراجعة والمساءلة، بما يضمن سلامة الخطى وتحقيق الإنجاز تحت مظلة التقدم المرتقب فى حركة المنهج العلمى.